

مني والذي أن أضيف مهارةً جديدةً إلى مهاراتي، مهارة التعامل مع البحر والمشاركة في رحلات الغوص. ما أذكرها أن للبحر رائحةً وصوراً. أما رائحته فهي قوية تملأ الأنفاس، وتبث في النفس النشاط، وأما صوت البحر فما أجمله؛ وخاصة إن اختلقت أصوات أمواجه بصوت النوارس أصوات وروائح وذكريات جميلة عندما كنا نلعب مع الأصدقاء ومع خيولنا على شاطئه الجميل. ما لم أكن أعرفه أن البحر ليس فقط صوتاً ورائحةً وذكريات طفولة، وآمال وآلام وقصص كثيرة عاشها أهل دبي نتيجة تعاملهم المستمر مع البحر؛ قصص لم أكن أتخيلها حتى أمرني أبي بارتياح البحر وتعلّم بعض وصل إلى هذا المنصب بتجربته التي لم تراكمة ومع رفاهية هالمة وارتبة. كان لي لُقّب بـ "السرّال" في لغة أهل البحر هو كبيرهم وأخبرهم بالبحر ومواسمه ورياحه ومواقيته؛ ويحُدّد "السرّال" بداية الموسم بناءً على حركة الأمواج، ويتعرّف على الاتجاهات بتتبّع مواقع النجوم. وللسرّال قدرة على رسم خريطة لقاع البحر وما يوجد فيه؛ يمكننا أيضاً استخدام المبادئ نفسها لتصوّر قاع البحر والتعرّف على طبيعته. كان البحارة يربطون كتلة ثقيلة من الرصاص، وكان أبو جابر قادراً على معرفة مكونات القاع من خلال ما يعلّق منها بكتلة الرصاص، كما كان قادراً على قياس قوة الموج من خلال تأثيره على حركة الحبل. كان أهل دبي يغوصون في الصيف بشكل رئيسي حيث تكون المياه دافئة، المحار – الذي يضم اللؤلؤ الثمين – والذي يكون على أعماق متفاوتة وفي مناطق مختلفة. فإن الحرارة على سطح الماء تكون لاهية، مما يصيب الكثر من البحارة بالجفاف بسبب قلّة المياه التي يحملونها. فكان الغواصون يستقون منها المياه أثناء رحلاتهم وكان يعرف مواقعها أهل الخبرة والتجربة. القائد الإنسان لا بد أن تكون قدماه على الأرض، والغوص البارد هو الأصعب نتيجة برودة المياه، حيث يختصر الغواصون وقت الغوص، ويكون البحر في حالة غير مستقرة، كان والدي يرسلني إلى أبو جابر لأتعلّم منه عن البحر وأحواله وخبراته ومواسمه، ولكن أكثر ما تعلمت من رحلاتي معه هو صعوبة الحياة في البحر، لم ينظر للأمور من فوق ليستطيع تلخيصها وتجربتها واتخاذ قرارات بشأنها. ويعايش حياتهم، تغيير حياتهم للأفضل. وخلال تلك الرحلات كنت أساعد في عملية التحضير، كتحميل القوارب بالمؤن، كان "السرّال" يحدّد المناطق التي ينتشر فيها اللؤلؤ. وكان الغواص يقفز تحت الماء واضعاً عظمة سمك على أنفه لسدّه، وحبالاً يربط على عنقه، ويمسكه "السايب" أو الرجل الذي يسحبه إلى الأعلى. يملأ الغواص رئتيه بالهواء ويغوص في الأسفل، لا أحد ينيس بكلمة أعلى القارب، ولا يُسمع إلا صوت تمايل القارب استجابةً لموج البحر. وما إن يشدّ الغواص الحبل حتى يقوم "السايب" بسحبه إلى الأعلى بسرعة، وتعوزه الطاقة للسباحة إلى سطح الماء لم يكن مستغرباً وقوع الكثير من الحوادث والوفيات المأساوية في رحلات الغوص. كانوا يصلون على الميت ثم يلقونه في البحر. وفي أحيان أخرى، مما يسبب ألماً شديداً للمصاب إلى درجة تدفعه حيث يكون في الانتظار جيش من الأطفال والنساء الذين يستقبلون أهاليهم بكل فرح؛